لوحة من أربعينيات القرن الثالث الميلادي تشير الى مراسيم
تتويج الملك الساساني اردشير بن بابكان نقش رجب- إيران

كركوك في العصور القديمة

تشير الموسوعة البريطانية إلى أن مدينة كركوك تقع على مشارف سفوح جبال زاگروس بإقليم كردستان العراق[١] وهي تتوسط مجموعة معروفة من مواقع المستوطنات والقرى الزراعية من العصر النيوليثي التي يسبق زمنها عصر التدوين كجرمو في شمالها الشرقي ومطارة في جنوبها وإن من أبرز معالمها هي قلعتها العالية العظيمة التي بنيت على جهة الشرق من الموقع الأثري القديم والصناعي الحديث المعروف بعرفه Arapha (الصيغة المعربة لكنية أررابخا Arrapha التأريخية) كانت وماتزال تعبر عن عمل حضاري لمستوطني منطقة كركوك الأوائل من السوباريين الذين تعلقت كنيتهم العامة سوبير أوسابار SU. BIR <Subar عند العراقيين القدماء بمفهوم جغرافي شملت أغلب المقاطعات من كردستان الحالية أشتهرت مع معبودها عند الأكديين بـ(علياتم eliatim) ودوّنها حمورابي(١٧٩٢- ١٧٥٠ ق.م) بصيغة ماتوم عليتوم matum elitum(البلاد العليا) وكانت تشمل في العصر البابلي القديم كلاً من أقاليم «ماراهشي، أوركيش، ناوار، كوتيوم، زاموا، سيموروم وأوربيلوم» وصاغتها كل من الفرس ككوهستان والعرب كبلاد الجبل حيث عبر هذا المفهوم في كل الحالات عن الوضع الطوبوغرافي لتلك المقاطعات أكثر من أن تشير إلى واقعها العرقي والقومي، وعندما إستقر فيها الهنود الآريون الأوائل أشتهرت على نفس الأساس بصيغة

شيماليا Simalia الكنية التي كانت كذلك تعبر عن إسم معبودها سيماليا (إله الجبال المكسوة بالثلوج) وأصبحت عند العرب مفهوماً يشير إلى جهات الشمال وعند الكرد بصيغة (شەمالّ) يعني رياح الثلوج الباردة التي تهب من فوق الجبال كما أشتهر في الهند بإسم هيماليا أوهيمالايا[٢].

دونت كنية سوبار في نصوص أوغاريت (رأس شمرا بشمال اللاذقية) بصيغة (شُبَر sbr)، أما إدريمي ملك ألالاخ (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) فقد سجلها بصيغة سوبير SU. BIR. ورغم سعة أراضي هذه البلاد وإختلاف اللهجات والألسنة فيها حيث كانت مجهولة المعالم عند السومريين والأكديين ثم عند البابليين والآشوريين فإن أهاليها إشتهروا في نصوص مدينة فارا السومرية بأوناس سوبور (Lu-Lu- Subur) كما وصفت سجلات مدينة أور أيام سلالتها الثالثة الرجل السوباري بـ(Lu- Su. A ki) وبناءً على هذا المفهوم فقد أطلق السومريون منذ مطلع العصر التأريخي إصطلاح SU. BIR ومن بعدهم الأكديون ثم الآشوريون إصطلاح سوبار، سوبور، سوبارتو، سوبارتيوم، سوبارتوم، شوبارو، شوبريا أو حتى شوراو على المناطق الشمالية العليا لوادي الرافدين[٣]. ومن بين أقدم الوثائق التأريخية السومرية التي أشارت إلى (سوبير) هي سجلات لوكال (آني- موندو) حاكم مدينة آدابا (تل بسمايه)[٤] في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد. ولغرض التعرف على أخبار البلدان المجاورة لمملكة لجش سجل هذا الملك السومري أسماءها بدءً من الشرق نحو الشمال ومنها إلى الغرب كالآتي «ايلام، ماراهشي،

كوتيوم، سوبير، آمورو، سوتيوم» مدرجاً مقاطعة كوتيوم التي كانت آرابخا أحد أقاليمها وقلعة كركوك مركزاً من مراكزها منفصلاً عن سوبير[٥] وثبت موقع سوبير بالترتيب بين إقليم كوتيوم وبلاد مارتو أو آمورو (أي بلاد العموريين في الغرب)، بينما أشار حاكم أكد الذي أطلق على نفسه لقب شاروكين أو سرجون (الملك الشرعي أو الصادق ٢٣٤٠-٢١٩٨ ق.م)[٦] إلى أن «إشتا مات خور-ساگ إيري/ ننني إدي أساس//زا-اس//كي مات سوبير» موضحا الموقع على أنه «ماتام عالليتام ما- ري- ام لارموتييام كي إيبلاكي إديما گيش. تير گيش إبرين أو كور كور كو» أي أن سوبير تشمل البلاد العليا لحد إيبلا (تل عطشانة شمال غرب حلب) وكل بلاد كور كور (الجبال) التي صاغ الحثيون إسمها كذلك بصيغة «كور أو گو» وشملت برأي أرنست هوتسفيلد Ernest Herzfeld مناطق الفرات العليا ووديان نهر مراد صو وديار بكر ومناطق پالا وتومانا بوسط كردستان[٧] ثم نرى نارام سن حفيد سرجون (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م) يسمي نفسه كذلك ملك عليلتم، الاصطلاح الذي تغير إلى عيلاتي فيما بعد[٨] كما نتعرف على هذه البلاد كذلك من خلال إصطلاح «ماتوم عيليتوم» في سجلات زيمبرليم (١٧٥٩-؟) ملك ماري المعاصر لحمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م.) الذي أظهرت كتاباته المكتشفة في مدينة أور على دلائل مهمة عن السوباريين في البلاد العليا[٩] ويؤكد J. J. Finkelstein هذه الحقيقة[١٠] قائلا:

"A major factor contribuing to the dificulties attending the subject

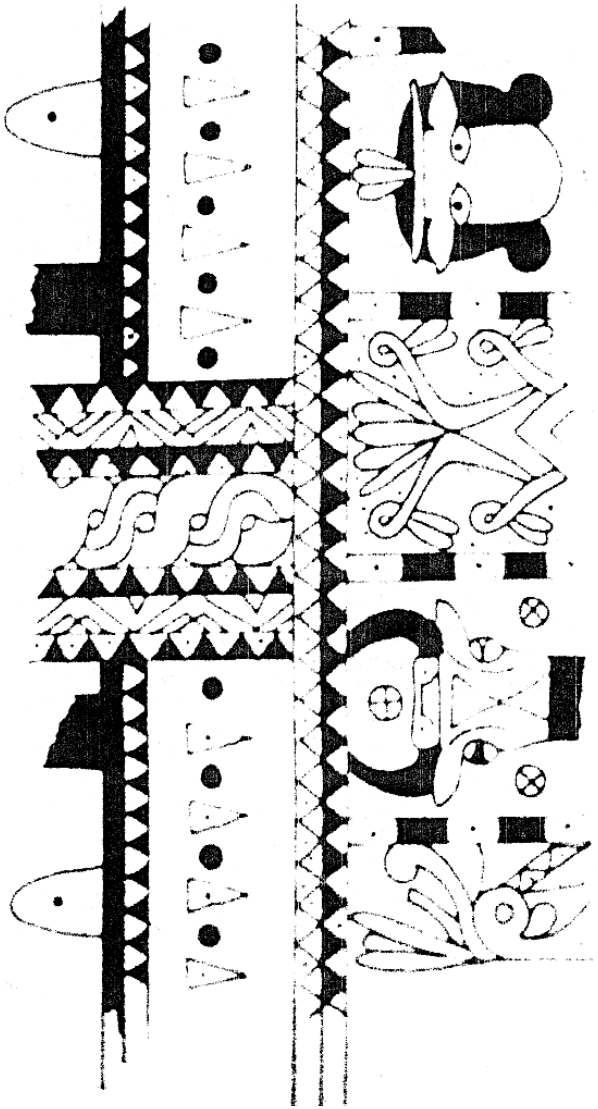

من الأعمال المكتشفة الفنية في مدينة نوزي

of Subartu, Subarians and Hurrians has been the paucity of onomastic evidence both for ethnic and the geogrphic aspect of the problem”

فإذا كانت بلاد سوبار أو سوبير في شمال وادي الرافدين قد شملت في هذا العصر، على حد المعلومات النادرة عند السومريين، الأراضي الواقعة فيما بين مرتفعات زاگروس (كرمانشاه) والبحر الأبيض المتوسط (قرقميش وألالاح) فلاشك من أن أهل إقليم كوتيوم ومعهم سكان أربخا وقلعة كركوك كانوا يشكلون الأكثرية من سكان سوبارتو الذين جاوروا زاموا (بلاد لولوبوم) من الشرق وسيموروم (وديان الزاب الصغير) من الشمال الشرقي وكل من الشمال الشرقي وكل من أوربيللوم وأوركيش من الشمال الغربي ومملكة خمازي من الجنوب حوالي جبال حمرين[١١] وكان موطنهم يعرف تارة كـ(مات كوتيوم أي بلاد كوتيوم) وكـ(كور كوتيوم أي جبال كوتيوم) تارة أخرى. وبناءً على هذه المعلومات يمكن إيجاد دلائل تأريخية واضحة لموقع إقليم أربخا في هذه الفترة المبكرة من عصر التدوين حيث كان يتحدد فيما بين سيموروم (نهري الزاب) ويألمان (نهري ألوند وديالى) أو بمعنى آخر بين إقليم أوربيللوم ومرتفعات حمرين وكان الحصن المتميز فيه بلاشك هو قلعة كركوك التي بنيت على الأغلب قبل هذا العصر، حيث يمكن تحديد زمن إقامتها فيما بين الألف الخامس والرابع (٤٥٠٠-٣٥٠٠ ق.م). وعندما يجري الحديث في سجلات السومريين والأكديين عن المحاور العليا المؤدية إلى مناطق الزابين الأسفل والأعلى، فإن طريق سوبارتو كان يبدأ عادة بعد إقليم لوبدي (بردان تپه وجلولاء) مستمراً في إقليم أربخا[١٢]

الذي أشتهر بكثرة غلاته ومزارعه حيث كانت كركوك تشكل أحد أهم المراكز التجارية فيه، ونرى في نصوص الألواح المكتشفة في نوزي (گاسور القديمة) إشارات واضحة إلى أن الكوتيين الذين مثلوا أقدم السكان في كركوك والمناطق المحيطة بها، كانوا يمتهنون الرعي في سهولها الممتدة حتى لوبدي ويتاجرون بالصوف واللحوم والمنتجات الحيوانية الأخرى التي أشتهر بعضها بإصطلاح SIG gu. ti. um, Siptum > qutu. t (um) أي شعر الماعز الكوتي.

وبعد غزوات ملوك سومر فقد ساق كل من عاهلي مدينة أكد سرجون ونارام سن أكثر من ريموش (٢٣١٥-٢٣٠٧ ق.م) وأخاه مانيشتوسو (٢٣٠٦-٢٢٩٢ ق.م) عدداً كبيراً من عبيد منطقة أربخا وكركوك نحو جنوب العراق كما نهبا ثروات حيوانية هائلة في جميع أنحاء سوبارتو وأرسلا مغانم معدنية كثيرة إلى مركز حكمهما ويشير نص من النصوص السرجونية أطلقوا عليه تسمية (لعنة أكد) إلى «أن أكد إمتلأت بالذهب وإكتضت منازلها المتألقة بالفضة وأحضر إلى مخازنها النحاس والرصاص وألواح اللازورد وإنتفخت جوانب صوامع غلالها من كثرة ما بها من حبوب الخ»[١٣] وفي زمن گوديا ملك لجش (حوالي ٢١٢٠ ق.م) كانت كوتيوم (كركوك وحواليها) تزود سومر بمختلف أصناف المعادن، وجدير بالإشارة هنا إلى أن أقاليم كارخار، سيموروم، شاشروم وأوربيللوم بجانب أربخا ونوزي (كركوك ولَيلان) كانت خلال حملات ملوك سومر مثل شولغي (١٩٨١-١٩٧٣ ق.م) وإبنه أمارسين (١٩٨١-١٩٧٣ ق.م) بالإضافة إلى الكوتيين مسكونة تماماً من قبل

الحوريين[١٤] وعندما حاول كل من شمشي عدد وإشمي داغان الآشوريين في هذه الفترة أن يحتلا المدن الرئيسية في شمال وادي الرافدين كان ملوك كل المناطق السوبارية يحملون أسماء حورية مثل أتل شين ملك بوروندوم وشوكروم تيشوب ملك إلاهوت ونانيب شافيري ملك خابوراتوم وشادو شارري ملك أزوخينوم وتيش أولمي ملك ماردمان وشيننام ملك أورشوم وأنيشوربي ملك خاشوم في شمال حلب[١٥] كما أدرج فراعنة مصر رسائل ملوك ميتانني في ملف خاص بأرشيفهم ختموا عليه عنوان «رسائل بلاد سوباري أو زوباري»[١٦].

وفي سجلات حمورابي تفصيلات وافية عن الصراع البابلي الآشوري حول نهب خيرات بلاد كوتيوم وسيموروم بإستمرار. وعلى كل حال فإن نارام سن إعتبر أرابخا في سجل غزواته جزءً من بلاد سوبارتو التي إمتدت حسب قوله من شمال عيلام حتى جبل أمانوس الغرب، وكان قد مر بنفسه من خلالها متجهاً نحو مناطق دياربكر ومنها إلى شمال سورية، ثم ان ألقاب كل الملوك المحليين في مناطق كركوك بجانب أسماء الأماكن السوبارية حملت الطابع الحوري مثل تاهيشاتيلي حاكم المناطق الواقعة على نهر الزاب الصغير في رانيه وأزيخيننوم الذي سادت سلطته في مناطق سوبارية عديدة واسعة[١٧] وبوتتيم- أتل Puttim- Atal ملك سيموروم الذي قام بالتصدي لنارام في شمال أرابخا[١٨].

وفي سبيل التحرر من عمليات السوق والعبودية ولأجل وقف الغزوات الأكدية المتكررة على أرابخا والمناطق الشمالية لوادي الرافدين حاول ملوك كركوك من الكوتيين بشكل خاص وملوك سوبارتو من الحوريين

بشكل عام إنهاء أسبابها في مهدها فبدأ الكوتي إريدوبزير Erridupizir المعاصر لنارام سن يفرض سيادته أولاً على مدينة Nippur (نفر) حيث ترك فيها كتابة مطولة وصف نفسه بالأكدية على أنه ملك سومر وأكد وملك جهات العالم الأربعة «sar kibraat arba cim»[١٩]. ثم دخل الملك الكوتي سرلجب Sar-Lagab في صراع طويل مع ملك أكد شاركالي شاري (٢٢٢٣-٢١٩٨ ق.م.) في وقت كان الملك الحوري أتل شين يحكم في هذه الفترة بالإضافة إلى أوركيش كل من أوربيللوم وآرابخا والمناطق العليا لنهر ديالى[٢٠] ثم سقطت أغلب دويلات المدن السومرية والأكدية أخيراً بيد أبلو- لو - ميش الكوتي عام ٢١٩٨ ق.م. وإستمر الأرابخيون (أهل كركوك) يحكمون سومر وأكد لفترة تجاوزت قرناً من الزمن أي لحد عام ٢١١٦ ق.م. وخلال تعاظم شأن السلطة الكوتية، وإنطلاقاً من جهات نهر الخابور حاول الملك الحوري كيكلب أتل (٢٢٣٠-٢١١٦ ق.م) الذي كان يستقر في عاصمته قرب عامودة بشمال سورية توسيع حدود مملكته مثلما تدلنا على ذلك سجلات بوغاز كويي (حتوشا- عاصمة الحثيين القديمة)، وقد تحققت هذه المحاولات بيد أتل - شين الذي ترك لنا لوحة من البرونز عثر عليها في أساس معبد نزكال في بلاد سومر وعليها كتابة مدونة بالخط المسماري وباللغة الأكدية جاء فيها «أن أتل شين إين شترمات هو ملك بلاد أوركيش وناوار اللتين تضمان الأراضي الواقعة بين نهري الخابور وديالى»[٢١] وعلى هذا الأساس نجد من بين السطور التي إحتوتها نصوص مدينة تيبور التأثير اللغوي الحوري على سكان المدن السومرية والبابلية وهي